

التحذير من فتنة الدنيا وانتهاك الحرمات من أجلها

لأبي عبد الرحمن

عبد الرقيب بن علي بن أحمد أبو عبد الرحمن الكوكباني

كان الله له في الدارين

بمسجد أم القرى صنعاء

حرسها الله

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما كثيرا، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثات بدعة وكل بدعة ضلالة.

معاشر المؤمنين، روى البخاري رحمه الله في صحيحه^(١) من حديث أم سلمة هند بنت أبي أمية إحدى أمهات المؤمنين، رضي الله عنها وأرضاها، أنها قالت: استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة فزعا يقول: «سبحان الله ماذا أنزل الله من الخزائن؟ وماذا أنزل من الفتن؟ من يوقظ صواحب الحجرات» يريد أزواجه - «لكي يصلين، رب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة».

الفتن تنزل، والله عز وجل يبتلي عباده بها. ومن أعظم وأخطر خصائص الفتن أنها تعرض على القلوب، والقلوب سريعة التقلب وسريعة التجاوب، سريعة التنقل، ولذلك جاء في "صحيح مسلم"^(٢) من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا. فأى قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء. وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى

^(١) أخرجه البخاري برقم (٧٠٦٩).

^(٢) أخرجه مسلم برقم (١٤٤).

تصير على قلبين على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض. والآخر أسود مربادا كالكوز مجخيا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا إلا ما أشرب من هواه».

[فصل: شدة فتنة الهرج]

ألا وإن من أعظم الفتن التي أخبر النبي عليه الصلاة والسلام بوقوعها في آخر الزمان فتن الهرج، فتن القتل وسفك الدماء، فتنة نزع الأمن من الطرقات والمجتمعات. روى أحمد في المسند^(٣) من حديث كرز بن علقمة الخزاعي رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله هل للإسلام من منتهى؟ قال: «أيا أهل بيت». وقال في موضع آخر: قال: «نعم أيا أهل بيت من العرب أو العجم أراد الله بهم خيراً أدخل عليهم الإسلام». قال: ثم مه؟ قال: «ثم تقع الفتن كأنها الظلل» قال: كلا والله إن شاء الله. قال: «بلى والذي نفسي بيده ثم تعودون فيها أساود صبا يضرب بعضكم رقاب بعض».

تأمل يا عباد الله: فإن الأمة المحمدية جعلت العافية في صدرها وأولها.

قال شراح الحديث: الأساود جمع أسود، والأسود نوع من الحيات قاتل في سمه. وإذا أراد أن ينهش ارتفع هكذا إلى العلو ثم انصب على من يريد إيقاع النكايه ومن يريد قتله. نعم يرتفع هكذا ثم ينصب. وهذه من حيات الوادي العظيمة تتبع الرفقة من الناس العشرة وما فوقهم وما كان أكثر منهم، لا تخاف من الجمع. فإذا ما سمعت أصواتاً في الوادي انطلقت إليهم فترتفع ثم تنصب على أحدهم فتقتله^(٤).

«تعودون فيها أساود صبا» يعني: أن يكون أحد منكم مجنّداً للفتنة. يقتل الفئام من الناس. والعشرات من الناس. «بلى والذي نفسي بيده ثم تعودون فيها أساود صبا يضرب بعضكم رقاب بعض». والنبي عليه الصلاة والسلام يخبر بهذا الخبر إخبار حزين لما يقع في أمته، ليس إخبار مقرّ لهذه الأحداث

^(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٩٥٨) والطبراني في الكبير (٤٤٢) وابن حبان في صحيحه (٥٩٥٦) الحاكم في مستدركه (٨٠٤٣) بسند صحيح.

^(٤) قال القاضي عياض رحمه الله: الأساود نوع من الحيات عظام فيها سواد وهو أخبثها وقد تعترض الرفقة وتتبع الصوت والصب منها قال الحربي التي تنهش ثم ترتفع ثم تنصب يعني بذلك تشبيههم بها يعني ما يتولونه من الفتن والقتل والأذى. ("مشارك الأنوار على صحاح الآثار" / ٢ / ص ٦٩).

وهذه الأفعال التي تكون في أمة محمد عليه الصلاة والسلام. ومنشأها الهرج وسفك الدماء والقتل. فكيف إذا كان هذا الهرج -عباد الله- في الأشهر الحرم التي هي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان.

ففي "الصحيحين"^(٥) عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: خطبنا النبي صلى الله عليه وسلم يوم النحر قال: «أتدرون أي يوم هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. قال: «أليس يوم النحر؟» قلنا: بلى. قال: «أي شهر هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. فقال: «أليس ذو الحجة؟» قلنا: بلى. قال: «أي بلد هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. قال: «أليست بالبلدة الحرام؟» قلنا: بلى. قال: «فإن دماءكم وأموالكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا إلى يوم تلقون ربكم. ألا هل بلغت؟» قالوا: نعم. قال: «اللهم اشهد. فليبلغ الشاهد الغائب. فرب مبلغ أوعى من سامع. فلا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض». (أخرجه البخاري (١٧٤١) ومسلم (١٦٧٩)).

فالعُدوان يعتبر عظيم الجرم في سائر العام، ويزداد إثما وجرما وعظمة في الأشهر الحرم. والسعيد كل السعادة في الدنيا من جنب الفتن وابتعد عن أهلها.

روى أبو داود^(٦) من حديث المقداد بن الأسود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن السعيد لمن جنب الفتن إن السعيد لمن جنب الفتن إن السعيد لمن جنب الفتن ولمن ابتلى فصبر فوهاها».

من جاءه البلاء في داره وهو صابر لم يعتد على أحد وقابل هذا البلاء بالضوابط الشرعية الحاسمة فوا عجا له. هذا الصنف معدنه أصيل. ولكن من جُنّب الفتن وكانت بعيدة عنه فإنه لسعيد.

يا معاشر المؤمنين: ليس الشأن أن تعرفوا أن السعادة هي النجاة من الفتن، ولكن الشأن أن تعرفوا كيف أسباب النجاة من الفتن.

^(٥) أخرجه البخاري (١٧٤١) ومسلم (١٦٧٩).

^(٦) أخرجه أبو داود في سننه (٤٢٦٣) والطبراني في الكبير (٥٩٨) بسند صحيح.



فلذلك قيل قديماً: لا تسل عمن هلك كيف هلك ولكن سل عمن نجا كيف نجا^(٧). لأن النجاة عزيزة، لا سيما في أيام الفتن. النجاة التي تنال بها السعادة والعافية من الحرمات والآثام عزيزة. فلذلك اسلك رعاك الله مسالك السلامة لتنجو من الفتن، فمن ذلك أن تكف يدك عن المحارم، والدماء في أيام الفتنة، والهرج والقتل وسفك الدماء. لأن هذا بلاء عظيم كوني قد أخبر الله ورسوله به، وأنت إن دخلت في هذا الميدان لا بد أن يمسك الضر فلا بد أن تكون على مجانبة لمواقع الفتن. نعم وإن قلّ مالك، لأن الناس في أيام الفتن تكثر المغريات ويدعى الناس إليها ويكون بعد ذلك حصد الرقاب. تكثر الأموال والدواعي إلى الفتنة فيغتر الناس بعد ذلك بلعاعة الدنيا فيكونون صيد الفتنة.

[فصل: الإعراض عن الفتن بإكثار العبادة]

السلامة السلامة للدين والنفس والعرض وإن قلّ المال. أصون عرضي بهالي لا أدنّسه، لا بارك الله بعد العرض بالمال. عليك أن تكف يدك عن المحارم وعن الدماء وعن المحرمات.

وفي أمثال هذه الظروف الحرجة عليك أن تكمل نفسك بالأخلاق والسلوك الفاضلة والعمل الصالح وطاعة الله، وإن النبي صلى الله عليه وسلم قد أرشدك إلى هذا في سائر الأوقات وفي أيام الفتن على وجه الخصوص. روى مسلم في صحيحه^(٨) من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «العبادة في الهرج كهجرة إلي». (أخرجه مسلم (٢٩٤٨)).

الهرج: القتل والفتن.

أقبل على تلاوة القرآن، ابتعد عن الشرك وأهله، ابتعد عن الفتن العامة المتلاطمة التي لا تسلم من لوثتها إن دخلت فيها.

^(٧) كما قال أبو بكر ابن دريد: لا تعجب من هالك كيف هوى... بل فاعجب من سالم كيف نجا.

(نقله اليوسي في "زهر الأكمل في الأمثال والحكم" ص ١٠٥).

^(٨) أخرجه مسلم برقم (٢٩٤٨).

[فصل: التحذير من فتنة الدنيا]

يا عبد الله، إن من أعظم أسباب السلامة من الفتن أن تنظر من نافذة الشرع المطهر إلى الدنيا وحقارتها وصورتها عند الله وعند رسوله: هل تستحق سفك الدماء، وانتهاك الحرم، وقطع الطرقات، وهتك الأعراض؟ أم أنها أحقر من هذا كله؟

انظر إلى الدنيا بعين الشريعة بعين الكتاب والسنة. والله إنها لا تستحق هذا كله. لا تستحق بسببها أن تراق دم امرئ مسلم. نعم، الدنيا حقيرة، سماها الله متاعاً، ويا ليتها كانت متاعاً حقيقياً، بل سماها متاع الغرور. ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

والدار الآخرة دار القرار وفيها متاع حقيقي. والدار الدنيا ليست دار القرار، والمتاع الذي فيها غرور. انظر إلى هذا الصبي الطفل الرضيع وهو في أحضان أبويه الدافئين فإذا ما شبّ قليلاً وأنس الأبوان منه أنه يقوى على مصالح نفسه حرماه من ذلك الحُضن الدافئ. وبعد هذا يكابد المرائر، يكابد الأحداث والأكدار. فإذا ما كان ينعم الإنسان بالصحة ولا يجد الدنيا. يريد الطعام اللذيذ لا يجده، ولكن عنده الصحة. يريد شراباً لذيذاً لا يجده لكن عنده الصحة. فإذا ما صار بعد الكهولة وأقبلت عليه الدنيا وزخرفها وزينتها إذا به قد فقد الصحة فيريد أن يأكل ما كان يشتهيهِ بالأمس فيجد نفسه قد عزفت هذه هي الدنيا كفيئك أو كحلمك إذ حلمت. هكذا أيها المسلم: ﴿كَسْرَابٍ بَقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩]

هكذا الدنيا، وصفها الله بأنها متاع الغرور، وأنها لعب ولهو، وأنها هو ولعب. ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَهُوٌ﴾ [الأنعام: ٣٢]، ﴿إِنَّهَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهُوٌ﴾ [محمد: ٣٦]، ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا هُوٌ وَلَعِبٌ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

قال علماء التفسير: اللعب من الأشياء ما لا بقاء له ولا ثبات ولا حقيقة، هو زائل عن قريب^(٩).
واللهو ما شغلك عن الدار الآخرة، وما شغلك عن جنة النعيم، وشغلك عن الفوز برضوان الله يوم المعاد.
فلذلك قال الله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ١، ٢]

فأنت في الدنيا ضيف، وأنت في القبر زائر. وأنت مستقرّ في دار القرار. فإما في نعيم، وإما في شقاء.
فاختر لنفسك أي الدار تختار.

معاشر المؤمنين: إن مما يبين لكم حقارة الدنيا التي لا تستحق أن تزهد من أجلها الأرواح، وأن تنتهك بسببها الحرمات ما ذكر الله عز وجل في كتابه في ثلاث آيات في القرآن الكريم: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوٌّ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠]. ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥].

انظر إلى هذه الحياة الدنيا كماء فاختلط به نبات الأرض فأصاب من القلوب بهجة وسرورا برهة من الزمن ثم إذا به يصفرّ ثم يتجه إلى أن يكون حطاماً يابساً. هذه الدنيا يا عبد الله.

^(٩) قال الإمام القرطبي رحمه الله: ﴿وما هذه الحياة الدنيا إلا هو ولعب﴾ أي: شيء يلهى به ويلعب. أي: ليس ما أعطاه الله الأغنياء من الدنيا إلا وهو يضمحل ويزول، كاللعب الذي لا حقيقة له ولا ثبات. قال بعضهم: الدنيا إن بقيت لك لم تبق لها. وأنشد: تروح لنا الدنيا بغير الذي غدت * * وتحدث من بعد الأمور أمور

وتجري الليالي باجتماع وفرقة * * وتطلع فيها أنجم وتغور

فمن ظن أن الدهر باق سروره * * فذاك محال لا يدوم سرور

عفا الله عمن صير الهم واحداً * * وأيقن أن الدائرات تدور

قلت: وهذا كله في أمور الدنيا من المال والجاه والملبس الزائد على الضروري الذي به قوام العيش، والقوة على الطاعات، وأما ما كان منها لله فهو من الآخرة، وهو الذي يبقى كما قال: ﴿ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾ أي: ما ابتغي به ثوابه ورضاه.

(انتهى من "الجامع لأحكام القرآن" / ١٣ / ص ٣٦٢).

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

بعد هذا كله: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥].

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: شبه سبحانه الحياة الدنيا في أنها تتزين في عين الناظر فتروقه بزينتها وتعجبه فيميل إليها ويهاها اغتراراً منه بها، حتى إذا ظن أنه مالك لها قادر عليها سلبها بغتة أحوج ما كان إليها، وحيل بينه وبينها. فشبهها بالأرض التي ينزل الغيث عليها فتعشب ويحسن نباتها ويروق منظرها للناظر فيغتر به ويظن أنه قادر عليها مالك لها، فيأتيها أمر الله فتدرك نباتها الآفة بغتة فتصبح كأن لم تكن قبل، فيخيب ظنه وتصبح يده صفراً منها. فكذا حال الدنيا والواقع بها سواء. وهذا من أبلغ التشبيه والقياس. ولما كانت الدنيا عرضة لهذه الآفات والجنة سليمة منها قال: ﴿والله يدعو إلى دار السلام﴾ فسماها هنا دار السلام لسلامتها من هذه الآفات التي ذكرها في الدنيا. ("إعلام الموقعين" / ١ / ص ١٥٣).

هذه هي الدنيا وتلك الآخرة. فانظر إلى ذلك الماء ينزل من السماء فتنبت الأرض على أعقابها وبعد ذلك تخضر به الأرض. وهذا مشبه به الإنسان يكون طفلاً ثم ينال ريعان الشباب وقوته وفتوته، وبعد هذا يهوي إلى الكهولة وهي اصفرار الزرع في النبات يصفر الزرع. وهكذا العبد الآدمي يكون كهلاً بعد الشباب وبعد هذا يكون شيخاً كبيراً أشيمط وبعد هذا إلى المقابر، وهكذا حال الزرع في المآل إلى الزوال.

وتأمل في القمر في منازلها جعله الله مواقيت للناس والحج وجعله الله عبرة للناس ودرساً وعظة، وأن ابن آدم حاله كحال القمر يبدو صغيراً ثم يشتد ويتمالك نفسه شيئاً فشيئاً حتى يصير بدراً مكتملاً مستتيراً في عنفوات الشباب، ثم بعد هذا: ما بعد الكمال إلا النقصان يأوي العبد إلى نقصان العمر وإلى تدهور الحال هكذا حاله.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤] ،

هكذا الدنيا لا تأنس إليها ولا تتركها إليها.

شبهها بعض أهل العلم بالماء، بل ربنا عز وجل قبل ذلك قد شبهها بالماء. فإذا كنت قد علمت أن الدنيا شبعت بزرع فاعلم الآن في المثال الآتي أن الدنيا شبعت بالماء. فما وجه الشبه بين الماء والدنيا؟ قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾.

قال القرطبي رحمه الله: وقالت الحكماء: إنما شبه تعالى الدنيا بالماء لأن الماء لا يستقر في موضع، كذلك الدنيا لا تبقى على حال واحد، ولأن الماء لا يستقيم على حالة واحدة كذلك الدنيا، ولأن الماء لا يبقى ويذهب كذلك الدنيا تغنى، ولأن الماء لا يقدر أحد أن يدخله ولا يبتل كذلك الدنيا لا يسلم أحد دخلها من فتنها وآفتها، ولأن الماء إذا كان بقدر كان نافعاً منبتاً، وإذا جاوز المقدار كان ضاراً مهلكاً، وكذلك الدنيا الكفاف منها ينفع وفضولها يضر. ("الجامع لأحكام القرآن" / للقرطبي / ١٠ / ص ٤١٢).

يريد المرء أن يؤتى منه ويأبى الله إلا ما أراد

يقول المرء: فائدتى ومالي وتقوى الله أفضل ما استفاد

نعم، ما كل ما يتمنى المرء يدركه، تجري الرياح ما لا تشتهي السفن.

الماء كالحياة الدنيا .

تأمل الماء في أوجه الشبه : صُبَّ هذا الماء على صعيد صلب، صبه وقل له: اثبت أيها الماء ، اثبت رجوتك، اثبت في مكان واحد حتى آتي إليك. تجد هذا الماء على أعقاب صبيك له يتفرق يمنة ويسرة ولا يستقر في موضع واحد. هكذا الدنيا بالأمس كانت لك واليوم تكون لغيرك وغدا تكون لشخص آخر. ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]. الدنيا لا تستقر في موضع واحد كما أن الماء لا يستقر في موطن واحد. تأمل وجه الشبه.

الآخر: الماء يسلب سريعاً إما أن ينضب وإما أن ينشف مع حرارة الشمس، وإما أن تبتلعه الأرض، فهو سريع الزوال . وهكذا الدنيا. تأمل إلى دارك، انظر إلى كيس البرّ والدقيق، كم يبقى في دارك؟ الشهر والشهرين والثلاثة والأربعة. وتأمل في مكعبات الماء الكبيرة، والخزانات الأرضية في دارك كم تبقى في

دارك؟ الماء يسلب سريعا ويستهلك ويستنزف سريعا وهكذا الدنيا. فبالأمس كان الرجل غنيا واليوم صار فقيرا، وبالأمس كان حيا مقتدرا يصنع في ماله ما يشاء، واليوم صار رميما تحت التراب وورثته يتمتعون بهاله من بعده وربما ظن أنهم هالكون من بعده وأنه هو المدير لهم، فإذا ما ذهب دبر الله أحوالهم وبنوا الدنيا بأحسن مما بناها أبوهم، نعم لأن الأرض موعودة بالحياة والآدمي موعود بالفناء والموت. هكذا الدنيا وهكذا الماء.

ومن أوجه الشبهة بين الماء والدنيا: أن الماء لا يسلم داخله من بلته. كذلك الدنيا لا يسلم داخلها من لوثتها وأفاتها وفتنتها.

ومن أوجه الشبه بين الماء والدنيا : أن الماء إذا أعطيت منه القليل الكافي نفعا وأنبت لك نبات الأرض وأحيها، وإذا أعطيت منه ما جاوز الحد أتلّف الزرع وأضرّ بالممتلكات والمواشي والجسور والمباني . هكذا الدنيا إن أعطيت منها كفافا أصلح لك حالك وعيالك ومالك، وإن أعطيت منها فوق الحد المطلوب تعبت بها وغرقت في لجتها.

هكذا تعليق على كلام القرطبي رحمه الله تعالى الذي ذكرناه آنفا.

عباد الله، الدنيا كالظل الزائل. ضرب النبي صلى الله عليه وسلم لها أمثلة كثيرة تبين حقارتها في قلب اللبيب من الناس. روى مسلم في صحيحه^(١٠) عن جابر بن عبد الله : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بالسوق داخلا من بعض العالية والناس كنفته فمر بجدي أسك ميت فتناولوه فأخذ بأذنه ثم قال: «أيكم يحب أن هذا له بدرهم؟» فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء. وما نصنع به؟ قال: «أتحبون أنه لكم؟» قالوا: والله لو كان حيا كان عيبا فيه لأنه أسك، فكيف وهو ميت؟ فقال: «فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم».

هذا معيب عند أهل المواشي، وقد جمع المعاييب كلها، وهذا مثل الدنيا.

^(١٠) أخرجه مسلم برقم (٢٩٥٧).

وروى عبد الله بن أحمد في "زوائد المسند"^(١١) وصححه العلامة الألباني في "الصحيح الجامع" والعلامة الوادعي في "الجامع الصحيح" رحمة الله عليهما: عن أبي بن كعب، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن مطعم ابن آدم جعل مثلاً للدنيا، وإن قزحه وملحه، فانظر إلى ماذا يصير».

فالطعام الذي تجمعه من أسواق شتى؛ ماذا تكون بعد التقزيع والتمليح والبهارات والإعداد والرائحة الزكية؟ ماذا بعد الطبخ الذي فيه إتقان وإحسان؟ يصير هذا الجهود المجهود كله إلى دورات المياه. هكذا الدنيا. «وإن قزحه وملحه، فانظر إلى ماذا يصير».

وروى الترمذي في جامعه^(١٢) بسند صحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: نام رسول الله صلى الله عليه وسلم على حصير، فقام وقد أثر في جنبه فقلنا: يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاء؟ فقال: «ما لي وما للدنيا ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها».

هذه الدنيا عند أنبياء الله فكيف صارت غالية في أنفسنا بسببها نقتل وبسببها نسفك الدم الحرام، وبسببها نقطع الطرقات، وبسببها نأتي ما حرم الله، في الأشهر الحرم. أما نتقي الله ونراقبه؟ ليست الدنيا تستحق هذا. كبرنا ما حقره الله وحقرنا ما كبره الله، فحقر الله شأن المسلمين عند أعدائهم من اليهود والنصارى وصرنا ضحكة في أنظارهم، وصاروا يعرضون الفتن في بلاد المسلمين على الكفار في بلاد الكفار ويقولون إن من هاجر إلى بلاد المسلمين ليتعلم من علوم الدين سيفعلون به كما فعلوا بكذا. وهذا هو التفجير وهذا هو الاغتيال الذي يفعل عند المسلمين.

اتق الله، وأحسن إلى دينك، وأحسن إلى مجتمعك، لا تجعل للدنيا مقاماً في قلبك، تجرّك إلى ما حرمه الله هذا مثال الدنيا وصورتها عند الله وعند رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

^(١١) كما في "غاية المقصد في زوائد المسند" (٢/ ٣٠٨٧)، وأخرجه الطبراني في "الكبير" برقم (٥٣١)، وابن حبان في صحيحه برقم (٧٠٢).

^(١٢) برقم (٢٣٧٧). وأخرجه ابن ماجه في سننه (٤١٠٩)، الطبراني في "الكبير" برقم (٩٣٠٧)، وأبو داود الطيالسي كما في مسند الطيالسي برقم (٢٧٧) بسند صحيح.

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إقرارا به وتوحيدا وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما مزيدا، أما بعد:

[فصل: التحذير من مرض الشح]

معاشر المسلمين، إن أعظم ما يفتك بالمسلمين من الداخل والخارج هو الدنيا والحرص عليها وعلى نيلها من غير وجه شرعي. وهذا ما يسمى بالشح. فالشح أن يبخل العبد بما في يديه ويطمع فيما في يد غيره فيحرص على ما في يد غيره وعلى نيله بغير وجه شرعي. والطمع مهلكة. فإذا ما ثبت في الناس هذا الأمر فأبشر بحلول البلاء العام الذي لا يرحم صغيرا ولا كبيرا. ولذلك إن رأيت ما الذي يسلط أعداءنا علينا من الخارج اليهود والنصارى والمجوسيين والهندوسيين والبوذيين يطمعهم في مقدراتنا وخيراتنا وديننا وأعراضنا ما الذي يطمعهم في ذلك كله ؟ حبنا الدنيا وتقديمنا إياها على الحرمات وعلى الدين وعلى العرض وعلى ما أمر الله بتعظيمه.

روى أبو داود في سننه^(١٣) عن ثوبان رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها». فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال: «بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء (ما يحمله السيل من وسخ) كغثاء السيل ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن الله في قلوبكم الوهن». فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن ؟ قال: «حب الدنيا وكرهية الموت».

وهكذا بلاد المسلمين اليوم تتداعى علينا الأمم الكافرة من الرأسمالية والاشتراكية والبوذية والهندوسية «تداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها». انظر إلى الجائعين من الرجال يجتمعون على قصعة فيها ثريد يدورون عليها من كل جانب وهكذا بلاد المسلمين اليوم فهي منبع الخيرات. فيها المعادن والنفط وجبال الذهب وفيها ما طمع فيه أعداءها ولكن المسلمين هيثوا السبيل لأعداء الله إلى هذا لمحبتهم الدنيا وتقديمها على ما أمر الله بتعظيمه.

^(١٣) برقم (٤٢٩٧). وأخرجه الإمام أحمد في مسنده (٨٦٩٨)، وهو حديث حسن لغيره.

وتأمل حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم». (١٤).

والعينة من الربا، سلط الله عليكم ذلاً من أعدائكم يا أيها المسلمون.

وكيف يأتي الفتك علينا من الداخل؟ أن يلبسنا الله شيعة ويجعلنا أحزاباً يضرب بعضها رقاب بعض. هذا هو الحاصل. ولذلك قال عليه الصلاة والسلام كما في حديث عمرو بن عوف رضي الله عنه متفق عليه (١٥): «فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم».

وكما في حديث جابر رضي الله عنه عند مسلم (١٦): أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم».

حصل في الأقطار الإسلامية من كذا كذا من السنوات والأقطار العربية على وجه خصوص فتن دبّت عليها وركب عليها من ركب ونجا منها من نجا ولكن لا يسلم من مغبتها أحد كل السلامة، لقول الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥]، لا تصيب الظالم خاصة.

(١٤) أخرجه أبو داود في سننه (٣٤٦٢)، في سنده عطاء الخراساني، ضعيف.

وله متابيع عند الطبراني في "الكبير" (١٣٥٨٣) من طريق أبو بكر بن عياش عن الأعمش عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عمر به نحوه.

وله متابيع أيضاً عند الإمام أحمد (٥٠٠٧) من طريق شهر بن حوشب عن ابن عمر به نحوه.

فالحديث حسن لغيره.

(١٥) أخرجه البخاري (٤٠١٥) ومسلم (٢٩٦١).

(١٦) أخرجه مسلم (٢٥٧٨).

إذا جاء سيل الظلم فإنه يلتهم الصالح والطالح يأخذ الطيب والخبيث. فلذلك يا عباد الله كانت تلك المؤامرة على المسلمين ولم يعلم بها كثير من الناس زعما منه أنه يريد بها الخير للأمة ولكن تبين بعد هذه الأحداث كلها أنها كانت نتاج المؤامرات من أعدائنا من اليهود والنصارى، ولقد حصل في الأطياف السياسية في البلاد الإسلامية تدافع واقتتال من هذا الجانب الذين سمى نفسه بالمعارضة أو من ذلك الجانب الذي يسمى نفسه بالنظام الحاكم أصاب الضرر الجميع من أطياف العمل السياسي.

[فصل: أهمية العفو والصلح]

هذا معلوم ولكن يقال كلمة صادقة: هل من فتح صفحة بيضاء للعفو والصلح والتعافي والتسامح والتواد حتى نحقق ما بقي من الخيرات ونقيد الموجود ونستفيد المفقود من الخيرات؟ أم أننا نستمر ركوب هذه الموجه و يستمر البلاء وتدوم الفتنة حتى تحصد الأخضر واليابس؟ أظن أن العقلاء من الرجال يقولون: (والله إن هذا هو الحل الأمثل وأن تمد الأيدي للعفو والصلح). والله عز وجل قد جعل العفو خيرا من القصاص وجعله سبيلا إلى مغفرة الذنوب للعبد. ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

قال العلامة ابن كثير رحمه الله^(١٧): فإن الجزاء من جنس العمل، فكما تغفر عن المذنب إليك تغفر لك، وكما تصفح نصفحك عنك. انتهى.

وجاء في مسلم^(١٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين ويوم الخميس فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئا إلا رجلا كانت بينه وبين أخيه شحناء فيقال: أنظروا هذين حتى يصطلحا أنظروا هذين حتى يصطلحا أنظروا هذين حتى يصطلحا».

تتأخر المغفرة. وكما أن العفو والصفح من أسباب المغفرة فهو كذلك من أسباب الرفعة والعز للعبد العافي. فلا تظن أنك تنال بذلك الضعف وقلة المقدار عند خصومك. بل هذا والله رفعة.

(١٧) "تفسير القرآن العظيم" (٦/ ص ٣١).

(١٨) أخرجه مسلم (٢٥٦٥).

عن أبي هريرة رضي الله عنه^(١٩): عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزاً وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله».

وكذلك فإن العفو يا معاشر المؤمنين سبيل إلى رجوع وشائج القربى والمحبة والمودة التي كانت بين المسلمين قديماً؟ وصرنا من بعدها أسود صبا يضرب بعضنا اليوم رقاب بعض. ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

لا سيما والخلاف من أجل الدنيا، الخلاف من أجل مطامعها.

ألم يكن للعقلاء أسوة بالحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما؟ يا من يطلب المطامع: ألا يكون لك أسوة بالحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما؟ حيث صان الحرمات العامة والمصالح الشاملة وهو والله جدير خليق وحقيق بالخلافة وهو أفضل من خصومه إذ ذاك، ولكنه كما جاء في "صحيح البخاري"^(٢٠) عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر والحسن بن علي إلى جنبه وهو يقبل على الناس مرة وعليه أخرى ويقول: «إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين».

فلبي ذلك السيد العظيم رجاء جده فيه فتنازل عن الخلافة لا لعله ولا لقله ولا لذلة، ولكن من أجل الله، فصان الله به الحرمات وحفظ به الحقوق، ولبي ما رجا فيه محمد صلى الله عليه وسلم. ألا فهذا نداء إلى معاشر العقلاء في مجتمعنا اليمني أن يبادروا بالصلح بين المسلمين وبين الأطياف السياسية أن تعود إلى الجادة وإلى الرشد قبل اتساع الخرق على الراقع وقبل فوات الأوان وأن نصلح ما فسد من أمورنا وأخلاقنا في هذه الفتنة التي دبت على المسلمين ولقد علمنا كلنا والله أنها مؤامرة من اليهود والنصارى. ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨]. قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١]، وقال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوِيكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

^(١٩) أخرجه مسلم (٢٥٨٨).

^(٢٠) أخرجه البخاري (٢٧٠٤).

وقال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤].

رب كلمة يجمع الله بها شتات قلبين افترقا من أجل الدنيا، فأنت بهذا كالمصدق عليها، بل أنت أفضل من المتصدق. روى مسلم في صحيحه^(٢١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كل سلامى من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس». قال: «تعدل بين الاثنين صدقة وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة». قال: «والكلمة الطيبة صدقة وكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة وتميط الأذى عن الطريق صدقة».

وجاء من سنن أبي داود وجامع الترمذي^(٢٢) عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة». قالوا: بلى. قال: «إصلاح ذات البين وفساد ذات البين الحالقة».

الحالقة: لا تحلق الشعر وإنما تحلق الدين والكرامات والمروءات والأمن والعافية والعيش الآمن بين الناس.

هذا هو الحاصل الفتن لا ترحم صغيراً ولا كبيراً، فرحم الله رجلاً عاقلاً إما أن يكون سياسياً وإما أن يكون من مشايخ القبائل أو من التجار أو من ذوي الرأي السديد يسعى بين الناس في صلاح ذات البين بأن يجمع الأكف على بعضها ويبين للناس أن هذه فتن قد مكر بنا بسببها أعداؤنا من اليهود والنصارى، ولا زالت الفرصة سانحة للقاء الأيادي على الخير.

[فصل: شؤم الحزبية والديمقراطية]

ألم نقل في الأمس القريب إن تلك الحزبية التي قبلناها من أمريكا دمرها الله إنها وسيلة وليست غاية، فما بالها اليوم صارت غاية ونقيم عليها الولاء والبراء ونسفك من أجلها الدماء؟ فقد صارت حينئذ

^(٢١) أخرجه البخاري (٢٩٨٩) ومسلم (١٠٠٩).

^(٢٢) أخرجه أبو داود (٤٩١١/عون)، والترمذي (٢٥٠٩/أحوزي)، وصححه الإمام الوادعي رحمه الله في "الصحيح المسند" / رقم (١٠٥٠) / دار الآثار.

غاية كما أرادت أمريكا. هذا هو الحاصل. فعلينا أن ننبد الحزبية نبذ الحذاء المرقع الذي لا حاجة بنا إليه وأن نعود الأخوة الإيمانية، وأن ننبد الديمقراطية التي تداس بها الشرائع الإسلامية ونعود إلى الكتاب والسنة وتحكيم الشريعة الإسلامية. نعم هذا غرض كل مسلم راشد.

نسأل الله أن ينفعنا بها سمعنا وأن يرزقنا بها ينفعنا .

اللهم اجعل لنا من كل همّ فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً ومن كل عسر يسراً ومن كل بلاء عافية.

اللهم اجعل بلدنا هذا آمناً مطمئناً وسائر بلاد المسلمين. اللهم من أراد أمن المسلمين وإيمانهم واستقرارهم وعقيدتهم بسوء فاجعل كيده في نحره واجعل تدميره في تدبيره واكف المسلمين شره يا رب العالمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

٨ ذو الحجة ١٤٣٥ الهجرية

فهرس الرسالة

٢	مقدمة
٣	[فصل : شدة فتنة الهرج]
٥	[فصل : الإعراض عن الفتن بإكثار العبادة]
٦	[فصل : التحذير من فتنة الدنيا]
١٢	[فصل : التحذير من مرض الشح]
١٤	[فصل : أهمية العفو والصلح]
١٦	[فصل : شؤون الحزبية والديمقراطية]
١٨	فهرس الرسالة